عقلية الطفل

سلسلة مقالات عن عقل الطفل

٢

خيال الطفل

كثير من الخلاف الذى يقع بين الأم وطفلها ويكدر صفوهما يكون ناتجاً عن الجهل بأعمال عقل الطفل التى من أهمها الخيال

فعلى الأم أن تعلم أن لطفلها قوة مخيلة بدونها يكون خاملاً وشاذاً عن غيره من الأطفال . وهذه القوة تجعله بمجرد أن يعرف عدة أسماء وأشخاص يرتب معلوماته ترتيباً خاصاً ليكوّن منها صوراً جديدة وعالماً غريباً، فيه تحادثه الحيوانات ، ويلاعبه الجماد ، وتضاحكه الأزهار ، وتسابقه الأشباح ، فعند ما يرى نباتاً مغطى بالندى يظنه يبكى، ويتخيل الأمطار دموعاً تذرفها السماء ، والبرق طرفة عين السماء ، والنجوم مصابيح معلقة فى السماء ، والفراش زهرة طائرة فى الجو، والشمس عيناً عظيمة تحدق فيه ، وقد يخجل امام نظرتها القوية ، والسحب ملائكة طائرة أو أولاداً تلعب أو حيوانات تركض. واذا ما رأى أى منظر من المناظر الاعتيادية البسيطة فانه يخرجه للحال من دائرة خياله منظراً غريباً وعظيماً . مثال ذلك اذا رأى رجلاً اعرج فانه ينسج منه بخياله حكاية قريبة من الصواب فيتصوره فارساً هماماً ممتطياً جواداً عالياً فيعثر الجواد ويسقط الفارس وتنكسر رجله . وقد لا يفوت المتخيل الصغير أن يطالب من

والدته إذا كانت بالقرب منه أن تقبّل مكان الجرح كما تفعل معه لتخفف من آلام المسكين

ولقد أضعف الوالدون والمربون هذه القوة الثمينة فى الماضى لأنهم وجدوا أن الطفل الضعيف الخيال يكون هادئاً ساكناً لا يتعبهم بلعبه وحركته كالطفل القوى الخيال ، ولم يفطنوا الى مقدار ما سببوه من الضرر بمنع الطفل من اتباع وحى خياله فى سبيل راحتهم الشخصية . وهم لو أدركوا أهمية ما يعدونه « لعباً باطلاً » لضحوا فى سبيله كما يضحون فى وجوه أخرى

فليس الشاعر فقط الذى يحتاج الى خيال رائع بل كل منا يحتاج اليه فى حياته اليومية . فالانسان الذى يروق لنا أن نصادقه ونمزج عواطفنا بعواطفه ونشركه فى سرائنا وضرائنا هو الشخص الذى بخياله يمكنه أن يضع نفسه فى مركز الغير

والسعيد لا يعطف على التعس والتعس لا يبرّر سعادة السعيد الا بواسطة الخيال . كما أن كثيراً من الظلم الذى نشاهده فى الحياة ليس ناتجاً عن القسوة وجمود القلب بل عن ضعف قوة الخيال .

فالخيال غذاء الروح إذ أنه قصيدة شعرية تجود بها نفس الطفل . بل انه أعمال سحرية تكسو الأشياء العارية وترفع الأشياء الحقيرة وتحول الأشياء الاعتيادية التى تحيط به الى عالم خيالى بهى خاضع له وهو سلطانه

فليس هناك من رجل يعيش دائماً فى وسط أملاح وحوامض الحقائق ولا يطير بخياله الى حدائق علوية غناء .

فالخيال من أعظم منابع سعادة الطفل ومن أكبر الوسائل لتربية الخلق والعقل تربية جميلة . فالطفل الذى ينقل الحصى الذى يجده بالطريق من مكان

الى آخر حتى يتيسر له أن يغير المناظر التى حوله — كما كانت تفعل «جين انجلو» Jean Ingelow الشاعرة الانجليزية وهى طفلة — يبشرنا بأنه سيشب جميل النفس رقيق الشعور، والطفل الذى يمثل دور الملك والأمير والفارس والجندى يشعر بعظمة الملك وحماسة الجندى وشجاعة الفارس ويأخذ عنهم مثلاً عليا يرفع نفسه الى مستواه شيئاً فشيئاً

قليل منا من يفهم حقيقة عالم الطفل الخيالى وكثيرون لا يسمحون لخيلته أن تجرى فى مجراها الطبيعى بل يقيدونها بسلاسل من الاشياء التى يراها ويسمعها ويلمسها فقط ويحسبون كل ما يتصوره ويجربه فى دائرة الخيال أعمالاً سيئة بينما يكون هذا بريئاً من كل شىء ، فكثيراً ما يرى الطفل كلباً يتخيله أسداً فيدعو والدته لتنظر الاسد الهائل المار بالطريق فتعاقبه على ما تظنه كذبا ، جاهلة أن ليس الكلب الا أسداً حقيقياً فى نظر الطفل . وكثيراً ما تصرخ الطفلة وتبكى عند ما نطأ ألعوبتها بقدمنا فنحسب ذلك منها عدم اعتدال ، ونحن لا ندرى أن هذه الألعوبة ما هى الا ابنتها وفلذة كبدها الخيالية وهى تبكى تألماً لتألمها تحت أقدامنا ، فأولى بالأم أن تشارك طفلها فى روح خياله فتخاف من الدب الذى يخوفها به وتلطم الحائط انتقاماً له اذا صدم فيه

ويبتدئ عمل المخيلة فى السنة الثانية من عمر الطفل ويكون خياله مرتبطاً باللعب فيصل أعلاه بواسطة الدمى (العرائس) التى يصنعها أو يبتاعها له والده مصنوعة فيطعمها ويربيها ويقوم بجميع حاجياتها ليست المادية فقط بل الروحية أيضاً اذ كثيراً ما تصحبه الى أماكن العبادة ، ويظهر خيال الطفل أيضاً بتمثيله أدواراً يفقد فيها شخصيته بالكلية ويستاء اذا عومل أو خوطب كحقيقته لأنه وقتئذٍ يكون بطلا أو شخصاً آخر ، فالطفل الذى يمثل دور

الطبيب لايرضى أن يعامل الا كطبيب والذى يمثل دور البائع يطلب أن يعامل معاملة البائع وهكذا

وكثيراً ما يكون التمثيل مبنياً على حكايات سمعها أو مناظر رآها ، وكثير من الاطفال لايحتاجون الى أشياء محسوسة لتكون أساساً لخيالهم بل يختلقون أشياء وأشخاصاً لاوجود لها لتفى بهذا الغرض ، مثال ذلك أنهم وهم منفردون يتصورون أنفسهم برفقة أصحاب خياليين فيستقبلونهم كزائرين ويحادثونهم كأصدقاء . وقد يخشى من هذا النوع من الخيال اذ يعتقد الكثيرون أن اطلاق سراح الخيال للطفل يؤول به الى تعود الوهم والكذب ، ولكن لا صحة لهذا الاعتقاد لأن الطفل عند تخيله الأشياء على غير حقيقتها لا يكذب بل أنه يعتقد ما يتخيله حقيقة واقعة ، فهو يراها بغير العين التى يرى بها من هم اكبر منه سناً فيحدثك باختبارات خيالية بطريقة طبيعية كالكبير عند ما يقص عليك حلماً

ويظل الطفل الى الرابعة وهو لا يدرك أنه يتخيل ما يعتقده صحيحاً وبين الرابعة والسادسة يبلغ مدى الخيال نهايته حيث يبتدئ الطفل يشعر بحقيقة الأشياء وعندئذ يجد سروراً عظيماً من رؤيته الشيء الخيالى فى مظهره الحقيقى . وبعد ذلك يميز الطفل بين الاختبارات الواقعية والخيالية . ولا يلزم الحكم على أقواله حكماً خلقياً إلاّ بعد أن يبلغ هذا الطور

وهناك خطر آخر يتخوف منه العابثون بخيال الطفل وهو أن الطفل الذى يتخيل أفكاراً عظيمة يصعب عليه تحقيقها قد يتعود حياة الاحلام دون حياة الافعال . ولكننا نلاحظ ان الذى يشعر بشجاعة الجندى وهو يمثل دور الجندى اذا وقع وتألم قليلاً يبكى . فهو يقتنع بهيجة الانفعال

النفسى للشجاعة طالما كان فى عالم الخيال . ولكنه لا يتمسك بالشجاعة فى عالم الحقيقة . ومع ذلك ففى الاستطاعة مقاومة هذا الخطر بملاحظة الطفل فنحتم عليه أن يطبق الانفعالات الحسنة التى يتخيلها على حياته الحقيقية حتى يتعودها وتصير فعلاً خلقياً فيه ويشعر أنه خادع لنفسه إن لم يجاهد أن يعيش حسب المثل الأعلى الذى وضعه أمامه فى اللعب

فبذل محاولة المستحيل بأمانة خيال الطفل يجب ارشاده الى استعمال خياله استعمالاً سديداً وتوجيهه نحو كل جميل . ويكون ذلك بواسطة الصور والمناظر الجميلة واللعب والحكايات الخيالية الجيدة التى ما هى الا رمز عن حقائق يعيش الطفل وسطها . كما أنها تمثل أنواعاً من الفضائل كالأمانة وجزاء الأفعال فى صورة مشوقة مناسبة لعقول الأطفال فتنير فيه البصيرة الروحية التى يرى بها أعماق الأشياء فلا يكتفى بالمناظر السطحية

اسلى عبد المسيح

فى التعبير عن الخاطر

لا شىء أصعب على النفس من عدم القدرة على التعبير عما تكنه وتريد اهداءه للمجتمع الذى هى جزء منه

فالانسان والحالة هذه يقاسى ما يقاسيه الموسيقى الذى ابتلى بالصمم فهو يشعر فى نفسه بجمال الحان الموسيقى ولكنه لا يستطيع تلحينها لأنه لا يسمع ما يلحن

أو الشاعر الاعمى الذى يحرك منظر طبيعى كشروق الشمس وغروبها